نلسن ووقعة طرف الغار

اخبار الحرب في الشرق الاقصى اليوم وخصوصاً ما يأتيهِ اليابانيون فيها من الشدة والبأس مع الدهاء والتجربة المنجزة تجيل في الخيال صور الماضين من العظام حتى يتراءى للمرء ان ارواحهم تناسخت فظهروا اليوم باسم كروكي وطوغو وغيرهما . وقد اذكرني هذا البحري الياباني زميلهُ نلسن الانكليزي ووقعة طرف الغار فاحببت ان اذكرها لقراء المقتطف الاغر والشيء بالشيء يذكر

ولد نلسن في نورفوك من البلاد الانكليزيَّة سنة ١٧٥٨ وكان يميل الى اقتحام الامور العظيمة منذ نعومة اظفاره فطلب العيشة البحرية ودخل الاسطول سنة ١٧٧٠ فخدم الخدم الطيبة وامتاز بالابداع والحمة خصوصاً جرأة الصدر ساعة المخاوف والمعاطب حتى قال عنهُ الملك وليم الرابع انهُ "ربان صبي مع حماسة تدل على انهُ فوق المعتاد من الرجال" . ولما نشبت الحرب بين الانكليز والافرنسيس سنة ١٧٩٣ رأس نلسن اسطولاً صغيرًا وأُرسل الى البحر المتوسط ومع ان سفينتهُ كانت من احط سفن الاسطول اظهر من الجرأة والكمال في الصناعة البحرية ما جذب الأنظار نحوهُ وجعلهُ محط الآمال . وقد كان لهُ الفضل الاعظم في حصار (باستيا) وتسليمها . ثم ان الدولة الاسبانية بعد اتحادها بالدولة الافرنسية شهرت الحرب على البلاد الانكليزيَّة سنة ١٧٩٦ فالتقى اسطولاها الواحد بالآخر اتفاقاً قرب رأس سنت فنسنت وكان الاسطول الاسباني مؤلفاً من سبع وعشرين سفينة والاسطول الانكليزي من خمس عشرة فخرق امير البحر الانكليزي السر جون جرفس خط العدو وقطع منهُ تسع سفن فحاول امير البحر الاسباني رتق الفتق بدورانهِ حول مقدمة اسطولهِ ليتصل بما انفك عنهُ الاَّ أن نلسن ساق سفينتهُ من مركزهِ في مؤخر الاسطول على رغم من رئيسهِ امير البحر وقطع على العدو سبيلهُ فاحبط مسعاهُ وكسرهُ شر كسرة ولولا ذلك لما فاز الانكليز بامنيتهم في الغالب وسُمع ينادي عسكرهُ في وطيس هذه الوقعة الهائلة "اما مقبرة وستمنستر واما الظفر" وكوفئ بعدها برتبة امارة البحر ولم يؤاخذ بخلع طاعة رئيسهِ السر جون جرفس

وقاد بوناپرت قرب ذلك الزمن اسطولاً الى مصر ليهدد الانكليز بالتعرض لشؤون الهند فهاجمهُ نلسن عند ابي قير في ايار (مايو) سنة ١٧٩٨ وكانت النتيجة ان الاسطول الافرنسي

وهو مؤلف من ثمث عشرة سفينة لم ينجُ منهُ الاَّ سفينتان فقط على ان سفنهُ كانت اعظم من السفن الانكليزية

وقد اقرت الدول العظمى لانكلترا بالسيادة البحرية منذ وقعة ابي قير هذه وكان الفضل الاعظم فيها لبراعة نلسن واقتدارهِ

ثم انهُ رأى ان نابليون يعد اسطولاً جديداً سنة ١٨٠١ لمهاجمة السواحل الانكليزية فهاجمهُ قبل ان يتم مشروعهُ وعقد معهُ معاهدة اميان التي بلغ بها من المكانة في قلوب الانكليز انهم صاروا يقرون لهُ بالرئاسة في البحرية الانكليزية

ومما ينتقد عليهِ في هذه الاثناء صحبتهُ امرأة السير وليم هاملتن التي اشتهرت بجمالها فلم يقدر على اخفاء ما يكنُّهُ لها لان الجنس اللطيف — وخصوصاً من كان مثل محبوبتهِ — كان يفعل بهِ ولا فعل الطلسمات المسطرة في كتب الاوائل فعانى منها التعب وجرت عليهِ صحبتها بعض القلاقل حتى اضطر ان يطلق امرأتهُ

لكن ذلك لم ينقص من قدرهِ شيئاً عند تجدد الحرب سنة ١٨٠٣ فانهُ رأس العمارة في البحر المتوسط فرسا قرب طولون وحصر الاسطول الافرنسي داخل المرفإ سنتين على ان اضطراب الجو وسعي العدو في الهرب وطول زمن الحصار مما لا يثبت عليهِ الاَّ امثال نلسن . وكان نابليون في هذه الاثناء يجيش الجيوش ويجمع الاساطيل قرب بولونيا لشن الغارة على البلاد الانكليزيَّة فأفلت الاسطول الافرنسي من حصارهِ في اواخر آذار (مارس) سنة ١٨٠٥ وقصد اميرهُ المسيو ڤيلنوف جمع اسطول اسباني وقطع الاوقيانوس الاتلنتيكي الى جزر الأنتيل ثم الرجوع الى الشطوط الاوربية لانتياش ما بقي من الاساطيل الافرنسية تحت الحصار ثم الوصول الى بولونيا للاتحاد بنابليون . اما نلسن فانهُ تعقبهُ لكن عاقهُ عن اللحاق بهِ تفتيشهُ عنهُ في اميركا الجنوبية وغيرها وقيام الاعاصير في سبيلهِ فارسل بعض السفن الخفيفة لتخبر امارة البحر الانكليزية بتقدم اسطول العدو نحو شطوط اوربا فبعثت هذه من اضطرهُ ان يلتجئ الى فرول . اما نلسن فانهُ لما خفي عنهُ موقع ڤيلنوف وقارب الشطوط الاوربية ذهب الى بلاد الانكليز فانتهز ڤيلنوف الفرصة وفر من فرول الى قادش في الجنوب مخالفاً مقاصد رئيسهِ نابليون فلما أشعرت البحرية الانكليزية بالامر جعلت نلسن رئيساً على اسطول كبير وارسلت معهُ امير البحر كولنغود ليهاجما العدو في ملجإهِ فجرت هنالك وقعة طرف الغار الشهيرة شطر موضوعنا وهاك خلاصتها مأخوذة عن سوثي واوكنور مورس وغيرهما

وقعة طرف الغار

في الرابع عشر من ايلول باكرًا رجع نلسن الى پورتسموث وبعد ما قضى بعض الشؤون على الشاطئ سعى في الوصول الى البحر بطريق معزولة لعلهُ يتخلص من زحمة جمهور المودعين غير انهُ وقفت في طريقهِ عصابة منهم كانت تتقدم الى الامام لتلمح وجههُ وكثير منها كان يغسل خدهِ بماء عيونهِ و يضرع الى الله طالبًا لهُ البركة

كان لانكلترا عدد من الابطال كبير لكنها لم يكن لها احد بلغ بهِ حب بني ملتهِ ما بلغ حب نلسن لهم وكلهم كانوا يعلمون ان قلبهُ مفعم بالرأفة والانسانية كما هو خالٍ من شوائب الخوف وانهُ لم يكن في فطرتهِ اقل صبغة انانية او طمع بل انهُ خدم بلادهُ بكل ما في وسعهِ بقلبهِ وروحهِ وقوتهِ مع الغيرة الخالصة والجنان الثابت لذلك كانوا يحبونهُ بصدق واخلاص كما كان يحب بلاد الانكليز

وبعد ما قطع نلسن في البحر شوطًا بعيدًا وقارب قادش وعلم ان ڤيلنوف لا يخرج الى عرض البحر ما دامت قوة الانكليز تقارب قوتهُ امر ثمانيًا من سفنهِ ان تختفي عن العيان ليستدرج عدوهُ و يستفزهُ الى الحرب فجازت عليهِ الحيلة وعند طلوع الفجر شوهد الاسطول الافرنسي مع حليفهِ الاسطول الاسباني من ظهر سفينة "فكتري" سفينة نلسن على شكل خطين متوازيين وكان الاسطول الانكليزي مؤلفًا من سبع وعشرين سفينة واربع بوارج واسطول العدو من ثلاث وثلاثين سفينة وسبع بوارج كبيرة وافضليتهُ من جهة الكبر والضخامة اكثر مما هي من جهة العدد وقد حملت سفنهم من العساكر نحو اربعة آلاف شرذمة نخبة من رماة بالبنادق

اما نلسن فانهُ صعد الى ظهر سفينتهِ بعد الشروق تمامًا وكان هذا اليوم (اليوم الحادي والعشرون من اكتوبر) يوم عيدٍ في اسرتهِ لان عمهُ قهر في مثلهِ اسطولاً افرنسيًا اكبر من اسطولهِ . وكان نلسن يتفاءل بهِ ويظن انهُ يكون يوم مجالهِ ايضًا وامثال هذه الخرافات قلما يخلو منها احد تمامًا

وكان الهواء حينئذٍ نسيمًا خفيفًا مع هبات شديدة تهب من الغرب . وقد اشير الى الاسطول بالحملة على العدو بخطين فرفعت الاشرعة وكان كولنغود على امرة خط الوقاية (المقابل لجانب مهب الريح) ومعهُ اربع عشرة سفينة ونلسن على خط الريح ومعهُ خمس عشرة سفينة ولما رأى هذا ان الامور طبق مرغوبهِ ذهب الى مقصورتهِ وكتب الدعاء الآتي: —

"يا الهًا عظيمًا اعبدهُ تعطف بالنصر على بلادي وعلي مصلحة اوربا عمومًا وليكن هذا

النصر المنتظر خالياً من اقل سوء تصرف يشوبهُ ولتكن الانسانية بعدهُ سائدة في الاسطول البريطاني اما انا فاني اسلم نفسي للذي خلقني ولتهبط بركاتهُ على اجتهادي في خدمة بلادي ولهُ افوض امري والامر العادل الذي خولتهُ لاحميهُ . آمين"

ثم صعد بلاكوود الى سفينة " فكتوري " نحو الساعة السادسة فسأله نلسن بعد ما شام مخايل الخير وتوسم حسن المنقلب ووطد نفسهُ على اسر عشرين سفينة على الاقل وان كان العدو منيعاً "هل يوجد في الاسطول البريطاني نقص في الاشارات الحربية " فقال بلاكوود انهُ يظهر لهُ ان الاسطول يفهم موقعهُ فهماً واضحاً وما كاد يتم جملتهُ هذه حتى اشار نلسن الى الاسطول باشارة نهائية سيخلدها الايام ما خلدت لغة الانكليز او ذكرهم وتلك الاشارة عبارتهُ المأثورة "ان بلاد الانكليز تتوقع من كل رجل قيامهُ بواجبهِ" فاجاب الاسطول هذه الاشارة بهتاف شديد . ذكر المؤرخون ان ثيلتوف قال لما سمع هذه الجملة الانكليزية " هلكنا وقضي الامر " قال نلسن " الآن لا اقدر ان اقوم باكثر مما فعلت . يجب علينا ان نفوض امورنا وحجتنا العادلة لمجري الامور جلَّ وعلا واني اشكرهُ على هذه الفرصة العظيمة فرصة القيام بالواجب "

ولبس في ذلك اليوم لباسهُ الرسمي كالمعتاد وعلى صدرهِ عن اليسار اربعة اوسمة احرزها وقد تطيَّر ضباطهُ منها لانها تجعلهُ شحمة الآكل وغرض الرامي خصوصاً لما كانوا يعلمون من وجود احسن الرماة بالبنادق في الاسطول الافرنسي . فبث بعضهم لبعض خوفهُ وودوا لو يقنعهُ احد بتغيير لباسهِ لكنهم علموا ان مثل هذا الكلام يثير غضبهُ . ففي احد مواقعهِ الغابرة لما اشير عليهِ بمثلهِ قال " بالشرف احرزتها وبالشرف اموت معها "

وكانت خطة نلسن ان يقطع خط العدو من نقطتين لان ذلك يكون احسن مغبة واشد تأثيراً مما لو قطعهُ من نقطة واحدة ما دام عدد الاساطيل المحاربة كبيراً وقدَّم مراكبهُ الى الشمال ليقطع على العدو خط الانفلات الى قادش ومن ثم كان كولنغود مفتاح الحرب وقد اعجب بهِ نلسن وغبطهُ على انهُ السابق في معمعان هذه الموقعة

ثم صوَّب العدو مدفعاً مفرداً على سفينة فكتوري وبقي يطلقهُ حتى راى انهُ خرق شراعها الاوسط ثم صوَّب عليها مدافعهُ الجانبية مخصصاً منها حبال صواريها لعلهُ يعطلها قبل ان تلتحم بهِ وقد رفع نلسن اعلاماً عديدة كالعادة حتى اذا اتلف واحد منها يقوم مقامهُ غيرهُ اما العدو فانهُ اخفى اعلامهُ

وفي الاثناء اتجهت سفينة فكتوري نحو احدى السفن الافرنسية الكبيرة فكانت النيران

الجارفة تنزل عليها متوالية وكان كاتب الاميرال من اول فريساتها اصابتهُ قنبلة وهو يتحادث مع هاردي الربان فاختطفتهُ من بين اصحابهِ وصيرَّتهُ الى اعمالهِ . ثم اصابت قنبلة أُخرى جماعة من البحارة قتلت منهم ثمانية فطلب نلسن من الربان ان يفرق رجالهُ في السفينة

وبعد بضع دقائق اصابت رمية نارية العمودين اللذين تربط بهما اطراف عوارض الصاري في مؤخر السفينة ومرت بين نلسن وهاردي واصابت شظية من العمودين الثاني فرضت رجلهُ فوقف كلٌّ منهما يتأمل صاحبهُ وقد ظنَّ انهُ جرح فتبسم نلسن وقال " بلغت الشدة بهذا العمل يا هاردي انهُ لا يدوم طويلاً "

اما سفينة فكتري فانها ما زدت على عدوها حتى ذاك الحين شرارة من شراراتهِ على ان خمسين من بحارتها اضحوا بين قتيل وجريح وصاريها المقدم انقضَّ مع اشرعتهِ واقطابهِ وقد صرَّح نلسن انهُ ما رأى في كل ما مرَّ عليهِ من العظائم شيئاً يفوق هذه الشجاعة الهادئة شجاعة بحارتهِ في هذا الحادث المدلهم . وبعد الظهر بهنيهة اطلقت فكتري نيرانها على العدو من جانبها

وكان يستحيل على نلسن خرق خط العدو ما لم يستولِ على سفينة من سفنهِ فامر مدير سفينتهِ ان يديرها نحو سفينة للاعداء كبيرة تدعى ردوتابل (هائلة) فاصلتها هذه ناراً حامية صبتها عليها صبة واحدة ثم اغلقت كوات مدافعها فجأة خشية ان يدخل منها الانكليز ومنذ ذلك الحين لم يسمع لها طلق واحد من العيارات الضخمة

ويذكر القارئ ان قسماً من دعاء نلسن كان ان يمتاز الاسطول البريطاني بالانسانية في النصر المنتظر ولكي يعطي لذلك مثالاً بنفسهِ ويعلم مكارم الاخلاق اعطى الاوامر مرتين باماطة الاذى والكف عن الردوتابل لانهُ ظنها سلمت ولم يكن لديهِ شيء آخر غير سكوتها يثبت لهُ امر التسليم لانها لم يكن لها راية وقد جاءهُ القضاء وعاجلهُ حمامهُ منها بعد ما حماها مرتين . فان قنبلة اطلقت من قلعة صاريها المؤخر اصابتهُ سيفي كتفهِ اليسرى فوق رباطهِ العسكري على بعد خمسة عشر يردًا فانكب على وجههِ في البقعة التي تلطخت بدم كاتبهِ

وكان هاردي على بعد بضع خطوات منهُ ولما التفت اليهِ وجد ثلاثة رجال يحملونهُ فقال نلسن " قد وقعت انا ايضاً يا هاردي " فقال " ارجو ان لا يكون ذلك " فاجابهُ " نعم ان سلسلتي الفقرية اخترقت " ولم يغب وعيهُ حتى ذلك الحين لحظة واحدة ولاحظ وهم ينزلونهُ على السلم ان حبل الدفة الذي كان اتلف لم يغير فامر بتجديدهِ . ثم غطى وجههُ واوصتهُ بمنديلهِ كيلا تراهُ البحارة

وكان مستشفى السفينة طافياً بالجرحى والمحتضرين فلما نقلوا نلسن اليهِ لاقوا منهم بعض

الصعوبة . ثم انهم وضعوهُ في محل المقامة الاوسط وقد تبين بعد ذلك ان الضربة قاضية فأُخفي هذا عن الكل الاَّ هاردي وقسيس السفينة والمطببين . وقد تحقق هو من الشعور الذي حدث في ظهرهِ ومن اندفاق الدم في صدرهِ ان لا اعتناء ولا تطبب يجديانهِ نفعاً فامر الجراح ان يفارقهُ الى من يرجى لهُ النفع منهُ وكان كل ما يمكنهم عملهُ ان يروحوهُ بقطع الورق و يسقوهُ كوبات من شراب الليمون ليطفئ ظمأهُ الشديد

وكان وجعهُ شديداً جداً وقد اظهر اهتمامهُ بمجريات الحرب التي ابتدأت تتكشف وكانت بحارة فكتوري تهتف كلما سلمت سفينة من سفن الاعداء وكان لكل هتاف اثر استبشار في وجه البطل المحتضر يومض في عينيهِ

وبعد ساعة وعشر دقائق من جرح نلسن عاد اليهِ هاردي فتصافحا ساكتين وحاول هذا ان يتغلب على شعورهِ في مثل هذه الساعة المؤلمة لكنهُ عبثاً يحاول . قال لهُ نلسن "كيف حال الاقدار معنا اليوم" فاجابهُ جيدة جداً . قد سلَّمت عشر سفن وغيرت طريقها خمس من مقدمة الاسطول تريد الحملة على سفينتك وقد دعوت اثنتين او ثلاثاً من سفننا لردها ولا اشك انني اسحقها" فقال نلسن "ارجو لك ذلك" . وسألهُ هل سلمت سفينة من السفن الانكليزية فاجابهُ "لا خوف من هذا الامر"

ثم تكلم نلسن في نفسهِ وقال "اصبحت ميتاً يا هاردي وسينتهي بي الامر قريباً" . فاظهر هاردي املهُ ان يكون عند الجراح امل بالبقاء فاجاب نلسن "كلا هذا يستحيل لان ظهري خرق وسيخبرك الجراح بهِ" ثم صافحهُ هاردي مرة ثانية وفارقهُ الى ظهر السفينة بقلب يكاد يمزقهُ الاسى

وفي اثناء ذلك فقد نلسن كل شعور مما دون صدرهِ من جسمهِ وبعد ما اخبر الجراح بهِ قال لهُ "انت تعلم انني مضيت الى سبيلي وانا اعلمهُ واني اشعر بشيء يصعد في صدري (واضعاً يدهُ على يسارهِ) يدلني" ولما سألهُ الجراح عن المهِ اجابهُ "بلغ بي الالم انني افضل لو كنت ميتاً لكن الرجل في موقفنا (بصوت اخف) يود لو يمتد اجلهُ هنيهة اطول"

وبعد ان غاب الربان هاردي عن المستشفى خمسين دقيقة عاد اليهِ وصافحهُ مرة ثانية وهنأهُ بالنصر التام على الاعداء واخبرهُ انهُ يجهل عدد السفن التي سلمت لكنها على الاقل اربع عشرة او خمس عشرة فقال نلسن "حسن ولكني سمَّيتُ العشرين" . ثم قال بصوت اشد "القِ المراسي يا هاردي القها" فاشار اليهِ ان الاميرال كولنغود يأخذ ادارة الامور على نفسهِ فقال "لا يكن ذلك وانا حيٌّ القِ المراسي القها"

ثم دعا اليهِ هاردي وقال لهُ بصوت منخفض " لا تقذف بي من السفينة " واظهر رغبتهُ في ان يقبر قرب والديهِ ما لم يرَ الملك خلاف ذلك. ثم عاد الى الخصوصيات فقال " قبلني يا هاردي " فانحنى عليهِ وقبلهُ من خدهِ فقال نلسن " الآن قد اكتفيت اني اشكر الله على قيامي بواجبي " فوقف هاردي فوقهُ دقيقة او دقيقتين لا يبس ينبت شفة ثم انحنى عليهِ وقبلهُ مرة ثانية وفارقهُ فراقًا لا لقاء بعدهُ

وأحب نلسن الآن ان يقلب ذات اليمين وقال " ليتني لم اترك ظهر السفينة لأن الامر سينتهي بي قريبًا " وكان الموت يقترب منهُ مسرعًا واصبح لفظهُ ثقيلاً لكنهُ سُمع يقول بوضوح " اشكر الله قد قمت بواجبي " وبقي يردد هذه الجملة حتى كانت اخر كلامهِ وفارق دنياهُ في الساعة الرابعة والدقيقة الثلاثين اي بعد ثلاث ساعات وربع من اصابتهِ

وكان قد سقط بعد جرح نلسن بنحو ربع ساعة ما ينيف على الخمسين من عسكر فكتوري ينادق العدو ولم يمضِ طويل حتى لم يبقَ على صاري الردوتابل المؤخر غير اثنين فقط احدهما قاتل نلسن لكنهُ لم تطل حياتهُ ليفتخر بفعلتهِ فان ضابطًا انكليزيًا مسنًّا عرفهُ من قبعتهِ قدلَّ عليهِ من قتلهُ وهو يطلق النار والثاني قتل وهو يحاول النزول الى السفينة . ولما سلمت الردوتابل وُجد قاتل نلسن ملقًى على قلعة الصاري وقد اصابتهُ رصاصة في صدرهِ واخرى في رأسهِ . اما خسائر الانكليز في وقعة طرف الغار فقد بلغت الفًا وخمس مائة وسبعة وثمانين رجلاً وسلم العدو فيها عشرين سفينة لكنهُ كان يستحيل على الاسطول القاء المراسي كما اشار اليهِ نلسن فإن عاصفة هبت من الجنوب الغربي غرق بسببها بعض المسلوبات والبعض الآخر ذهب الى الشاطئ والبعض اتلف وواحدة افلتت الى قادش ولم يسلم للانكليز الاَّ اربع سفن بعد الجهد

وكانت وفاة نلسن اشد تأثيرًا على الامة الانكليزية من فاجعة عمومية فان الناس ارتاعت عند سماعها واصفرت وجوهها كأنها فقدت صديقًا حميمًا وبلغ ما عملهُ نلسن من الاتقان ان الحرب البحرية بعد طرف الغار عدت منتهية وان بحر المانش الذي كان يسميهِ نبوليون " خندقًا رطبًا " بات مدًّا منيعًا يزري بسد الاسكندر الكبير

دمشق عبد الرحمن شهبندر